يسلكون، والعاقبة التي إليها يصيرون. وهكذا تصبح طريق التقدم المنشود، مبينة واضحة لمن شاء أن يسلكها، ومن تنكب هذا الطريق حلت له العقوبة طبقاً لسنة الله تعالى فلا يولمن على فشل جهوده، إلا سلوكه الذي سلك، وطريقه الذي اختار، فقانون الله تعالى عام، وسنته صارمة لا تحابى أحداً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

٧/٤: موقف المسلم من السنن الإلهية

الآن وقد علمنا أن لله سنناً تخضع لها الحياة والأحياء، وسننا تخضع لها الجانب المادي من الكائنات الحية، إلى جانب الكون المادي المسخر من الله تعالى. فما الذي يطلبه الإسلام منا حيال السنن كي نصل إليها ؟ وما الذي يطلبه منا بعد اهتدائنا إليها ؟

بخصوص السؤال الأول فإن الله تعالى لم ينزل الآيات التي تشير إلى وجود السنن، ولا الآيات المتضمنة في ذاتها سنناً، كي نتعبد بتلاوتها فحسب، وإنما أشار إلى وجودها، ثم طالبنا بالبحث عنها واكتشافها، حتى يتحقق معنى تسخير الله تعالى مما في الكون من قوى للإنسان، وحتى ينتقل التسخير من ميدان القوة إلى ميدان العقل.

إن الكون مسخر للإنسان، لكن إذا كان الإنسان يجهل السنن التي يسير عليها الكون فلن يستطيع أن يستفيد من القوى المسخرة، وإنما يتمكن من ذلك عندما يصل إلى العلاقات التي توجد بين المقدمات ونتائجها، بين الأسباب ومسبباتها، بين القوانين وشروط انطباقها، عند ذلك فقط يمكن للإنسان أن يخرج التسخير من ميدان القوة إلى ميدان العقل.

إن قول الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ [آل عمران:١٣٧] هو أمر صريح بالبحث عن سنن الله تعالى واكتشافها، فنحن مطالبون بالسير في الأرض والبحث والنظر إلى السنن التي تحكم إن في الجانب المادي وإن في الجانب الإنساني، إننا مكلفون باتخاذ الكون ميدانا للدراسة حتى نصل إلى السنن التي تحكمه، فتمكن من الاستفادة من القوى الكامنة فيه، بإخراج التسخير- كما قلنا- من حالة القوة إلى حالة الفعل.

وبنفس القدر الذي ندرس الكون والعلاقات التي تحكمه، نحن مكلفون باستنباط السنن التي تحكم الاجتماع البشرى وتحكم السلوك الإنساني. وتخضع لها المجتمعات في تقدمها وتخلفها، ونهوضها وكبوتها وفى انتصاراتها وهزائمها، في رفعة شأنها واضمحلال أمرها، في عنفها يطيب المعيشة أو ضنكها، إلى أخر الأحوال التي ترد على الأمم والمجتمعات. وتستنبط هذه السنن من كتاب الله تعالى وسنة رسوله -، هذا تكليف صريح في الحالتين، حالة السنن التي تحكم الجانب المادي، والسنن التي تحكم الجانب الإنساني.

هذا ما يطلبه الإسلام من المسلم حيال الوصول إلى السنن، أما ما يطلبه منه بعد الوصول إليها فإنه تكليف آخر، أشد وضوحا وأقوى طلبا، انه التكليف باستخدامها والسير عليها وعدم تجاهلها، لأن كون الله تعالى لا ينقاد للإنسان لغير ذلك، والاستفادة مما أودع الله تعالى به من إمكانيات لا يدرك بغير هذا الطريق. إنه بدون الأخذ بالسنن والسير عليها لا تكون هناك قيمة لاكتشافها والعلم بها فالعلم بالسنة لا يغنى عن العمل بها شيئا، إن العامة والخاصة يعلمون سنة الله في التغيير المستفادة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ

﴿مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١] بيد أن هذا العلم لم يجد شيئا في تغيير أحوال المسلمين المتردية اليوم والتي تزداد ترديا عقداً بعد آخر.

إن علمنا بهذه السنة أو اكتشافنا لها يتطلب منا أن نتمثلها في حياتنا وأن تصطبغ بها أمورنا، وأن تنفعل بها جماهيرنا في حركة ذاتية نحو تغيير السلوك الإنساني، الذي يبنى على التغير النفسي.

إن علمنا بهذه السنة يتطلب منا إنزال الواقع على حكمها، واشتقاق برنامج عمل على أساس منها، أما تلاوتها آناء الليل وأطراف النهار والاستشهاد بها من الدعاة والمصلحين، فليس له من تأثير على مجريات الأمور العملية.

إن الوقوف على السنة الإلهية في ميدان ما ثم طرحها من وراء الظهر، إنما هو كفران لنعمة الله تعالى، وكفران النعمة، إنما يعقب النقص في الإنتاج ومن ثم نقص الإشباع، ثم انتشار الخوف وذهاب نعمة الأمن من المجتمع يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢].

إن الذي ترتب على كفران هذه القرية بنعم الله تعالى، هو إذاقتها لباس الجوع، ولباس الخوف بسبب صنيعهم هذا، وهو كفران النعمة.

إن المطلوب منا إثر التعرف على السنن الإلهية، أن تستخدم هذه السنن في الحصول على نتائجها الإيجابية في بناء الحياة وإنهاض المجتمع، كما نستخدمها في توقى النتائج السلبية المترتبة على تجاهلها، والمتمثلة في تردى المجتمع،

وانتقاص العرى التي تحقق تماسكه وتكفل بقاءه، أي أن السنة الإلهية يستفاد منها في اتجاهين إتجاه إيجابي لتحقيقه، واتجاه سلبي لتوقيه وهذا معنى ما قاله السلف بخصوص فعالية القدر بالقدر، والفرار من قدر الله إلى قدر الله سبحانه. إن أقدار الله تعالى هي سننه، وهي غلابة تنطبق لا محالة بصورة مطردة عامة- كما قلنا- ولا يعادلها ويوازنها إلا قدر آخر، وسنة أخرى تتحقق شروطها، فتتحقق نتائجها، فتستقيم الحياة، ويكون المسلم بذلك مستجيباً لأمر الله.

ولعلنا بهذه الجولة مع سنن الله تعالى في الميدان الاقتصادي نكون قد وضعنا أمام المسلم صورة واضحة لما ينبغي أن يكون عليه تعامله مع دنياه التي يعيش فيها حياته متعاملاً مع أحداثها، مؤثراً فيها، مستخدماً سنن الله سلماً يصعد عليه إلى مدارج الرقي والتقدم في الجوانب المختلفة ذلك أن المسلمين كغيرهم لا يستثنون من الخضوع لسنن الله تعالى وفقاً لشروط انطباقها.

إن بيان سنن الله تعالى لنا، أو وصولنا إليها بالاكتشاف، نعمة من نعم الله علينا، لا يجوز إهدارها، بل يجب الاستفادة منها واستخدامها- كما تستخدم كل النعم- فيما خلقت له.

لقد وضحت لنا السبل، وبينت لنا السنة، كي نهتدي بها حياتنا، ونصنع بالسير عليها واقعنا ونحقق بها أفضل الأوضاع المرضية لنا.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[النساء:٢٦]. **صدق الله العظيم**

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،